سيميائيّة الدّلالات اللّغويّة في شعر محمود درويش ((قصيدة عابرون في كلام عابر أنموذجاً))

[*] أ. د. محمد اسماعيل بصل ـ مشرف رئيس
[**]أ. د. تيسير سليمان جريكوس ـ مشرف مشارك
[***] باسم حسن عباس

الملّخص

هذا البحث محاولةٌ لاكتشاف الدّلالات اللّغويّة ذات الأبعاد السيميائيّة في شعر محمود درويش، ويقصد البحث الى التّعريف في سيميولوجيا الدّلالة بوصفها فرعاً من فروع السيميائيّة، وقد وقع الاختيار في الدّراسة التّطبيقية على قصيدة "عابرون في كلام عابر" لدراستها في ضوء سيميولوجيا الدّلالة والكشف عن الدّلالات المتنوعة التي ضمّنها الشّاعر في لغته الشّعريّة .

كلمات مفتاحية: سيميائيّة _ الدّلالات اللّغويّة _ عابرون في كلام عابر.

[*] . أستاذ في كلية الآداب والعلوم الإنسانية ـ جامعة تشرين ـ اللاذقية.
[**] ـ أستاذ في كلية الآداب والعلوم الإنسانية ـ جامعة تشرين ـ اللاذقية.
[***] طالب دكتوراه في كلية الآداب والعلوم الإنسانية ـ جامعة تشرين ـ اللاذقية.

The semiotics of linguistic connotations in Mahmoud Darwish's poetry ((Passive poem in transient speech as a model))

[*]Chief Supervisor -Ismail Basal a. Dr.. Muhammad
[**]Supervisor-Co -a. Dr.. Tayseer Suleiman Grikos
Bassam Hassan Abaas[***]

Summary

This research is an attempt to discover the linguistic connotations of semiotic dimensions in the poetry of Mahmoud Darwish, and the research intends to define the semiology of significance as a branch of semiotics which the poet included in his poetic language.

Keywords: semiotics _ linguistic semantics _ transient in transient speech

[*] professor at the faculty of Arts and humanities –Tishreen university – lattakia.
[**] professor at the faculty of Arts and humanities –Tishreen university – lattakia.
[***] Phd at the faculty of Arts and humanities –Tishreen university – lattakia.

المقدمة:

أنتجت الدراسات اللغوية في مسيرتها مجموعة من المداخل الإجرائية لقراءة النصوص الإبداعية ويأتي الحديث عن سيميولوجيا الدلالة في سياق الحراك الإبداعي الذي شهدته الدراسات اللغوية؛ إذ تعد مجالاً خصباً للتطبيق السيميائي؛ وذلك من خلال فتح آفاق النصوص التي تنضخ بالدلالات وملاحقة مكوناتها التي تحقق شعريتها.

والقارئ في شعر الشاعر محمود درويش يلحظ تنويعات إبداعية شعرية غنية بالدلالات تجعل منه مادةً خصبةً للقراءة بغية الوصول إلى المدلولات المتحققة داخل اللّغة الشعرية.

أهمية البحث:

تكمن أهمية البحث في تسليط الضوء على سيميولوجيا الدلالة والأصول التي انطلقت منها والتيارات التي مهدت لظهورها، كما يكشف عن الأسس التي يمكن الانطلاق منها في القراءة التحليلية للنصوص الإبداعية.

هدف البحث:

يهدف البحث إلى القول بإمكانية قراءة النصوص الشعرية في ضوء سيميولوجيا الدلالة بغية الكشف عن الدلالات المتحققة داخل اللّغة الشعرية.

منهج البحث:

اعتمد البحث المنهج الوصفي الذي يقوم على ملاحظة الظاهرة ومن ثم تحديدها واستقرائها واستنطاق الدلالات المتحققة داخل لغة النص /موضوع التحليل/.

السّيميائية:

جاء في "لسان العرب" أنّ «السُّومة والسِّيمة والسِّمياء: العلامة، سّوم الفرس: جعل عليه السِّيمة، وقوله تعالى: «حجارة من طين مسوّمة عند ربك للمسرفين»1،وفي "قاموس المحيط" نجد أن «السّيمة والسّيماء والسّيمياء، بكسرهن: العلامة»2

أما اصطلاحاً فالسّيميولوجيا علم حظي باهتمام كبير عند دارسي اللّغة ونقادها، وهي تعني (Sémiotque) علم الرموز، أو علم العلامات3.

وعلى الرّغم من تعدّد ترجمات هذا المصطلح، إلّا أن معظم هؤلاء الدّارسين يتفقون على أنّ السّيميولوجيا إنّما هي علم للعلامات، سواء أكانت هذه العلامات لغويّة أم غير لغويّة. ويعرّف (روبرت شولز) السّيميولوجيا قائلاً: «السّيميائيّة هي دراسة الشفرات، أي الأنظمة التي تمكّن الكائنات البشريّة من فهم بعض الأحداث، أو الوحدات بوصفها علامات تحمل معنى، وهذه الأنظمة هي نفسها أجزاء، أو نواح من الثّقافة الإنسانيّة على الرغم من أنَّها عرضة لتغيّرات ذات طبيعة بيولوجيّة وفيزيائية»4

---

[1]. سورة الفتح: الآية (29).

[2]. القاموس المحيط، مجد الدين محمد بن يعقوب الفيروز أبادي، إعداد وتقديم محمد عبد الرحمن المرعشلي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط2، 2003، ص136.

[3]. معجم اللسانية (فرنسي ـ عربي)، د.بسام بركة، منشورات جروس برس، طرابلس، لبنان، ط1، 1985م، ص186.

[4]. السّيميائيّة والتأويل، روبرت شولز، ترجمة سعيد الغانمي، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ط1، 1994م، ص13-14.

أمّا د. (محمد مفتاح) فيرى أنّ التعريفات المتعددة للسّيميائية تتّجه اتّجاهين، وهما الأساس الذي بنيت عليهما النظريّتان السيميائيتان «النظرية الثنائية التي تُبنى على الدّال والمدلول، والتي لا تهتم بالمرجع الخارجي، والنظريّة الثلاثيّة التي تتأسّس على علامات ثلاثيّة هي العلامة (الدّال)، الموضوع (المدلول)، والمؤّول (المرجع الدّاخلي والخارجي)».[1]

ومن خلال التعريفات الكثيرة للسّيميائيّة، نلاحظ أنّ (إشارة، علامة، رمز) هي الموضوع الرّئيس الذي تدور حوله الدّراسات اللّسانية عامةً.

وعندما بدأ علم العلامات (Sémiotque) يتطوّر شيئاً فشيئاً تعدّدت اتجاهاته، «فالباحث حنون مبارك يصنّف الاتجاهات السّيموطيقيّة إلى سيمولوجيا التّواصل، وسيمولوجيا الدّلالة، أمّا محمّد السّرغيني فحدّدها في ثلاثة اتّجاهات، هي: الاتجاه الأمريكيّ، والاتجاه الفرنسيّ، والاتجاه الروسيّ.

بينما جعلها بعض تدور في ثلاثة اتجاهات هي: سيمياء التّواصل، وسيمياء الدّلالة، وسيمياء الثّقافة»[2]

[1]- حول مبادئ السّيميائيّة، د. محمد مفتاح، المركز الثقافي العربي، الدّار البيضاء ـ المغرب، 1994م، ص 52-53.

[2]- السّيميائيّة وقراءة النص الأدبي، السعيد بوسقطة، مجلة المعرفة، العدد 540، عام2008، ص144.

وقد ارتبطت السّيميولوجيا بعلوم كثيرة؛ لأنَّ لكلّ علم علاماته، أو إشاراته الخاصّة به، ومن هذه العلوم: اللّسانيات، والفلسفة، وعلم النفس، والأدب، والمسرح، والسّينما...الخ.

سيميولوجيا الدّلالة:

جاء في "لسان العرب": «الدّليل ما يستدلّ به، والدّليل: الدّال وقد دلّه على الطّريق يدلّه دلالة ودِلالة ودُلولة (...) دّلّلت بهذا الطّريق عرفته، ودلّلْت به أدلُ دَلالة وأدّللت بالطّريق إدْلال (...) والدّلاّل الذي يجمع بين البيّعين والاسم الدَّلالة والدِلالة، والدِّلالة ما جعلته للدّليل أو الدّلال وقال ابن دريد: الدلالة بالفتح حرفة الدِلّال»[1]

أمّا في القرآن الكريم فقد ورد ذكرها بمعنى الهداية إلى طريق الرّشد والخير، يقول تعالى:« هل أدلّكم على تجارة تنجيكم من عذاب أليم»[2] ويقول: «إذ تمشي أختك فتقول هل أدلّكم على من يكفله»[3]

أما اصطلاحاً فيسوق الدّارسون تعريفات عدة لسيمياء الدّلالة: ف «الباحث اللغوي "ليونس" يعرّفه بأنه دراسة المعنى، ثم يخصصه فيستعمل المعنى اللغوي، والباحث "ليش"

[1]. لسان العرب، ابن منظور، ص 248-249.

[2]. سورة الصف، الآية (10).

[3]. سورة طه، الآية (20).

يعرفه بأنه دراسة المعنى، وأنه محور دراسة الاتصال، وأيضاً محور دراسة الذهن البشري»1.

وهده المصطلحات تقابل ما يُعرف بالفرنسية "Sémantiq" علم الدلالة، علم المعاني2 وقد ترجم هذا العلم في الدرس الدلالي العربي إلى: الدلالة، وعلم الدلالة، والدلالية، قال ((الشريف الجرجاني)): «الدلالة هي كون الشيء بحالة يلزم من العلم به العلم بشيء آخر، والشيء الأول يسمى دالاً، والشيء الآخر يسمى مدلولاً، وكيفية دلالة اللفظ على المعنى باصطلاح علماء الأصول محصورة في عبارة النّص، وإشارة النّص، ودلالة النّص، واقتضاء النّص».3

وقد جاء في معجم المصطلحات الفلسفية: «Sémologie دراسة دلالات الرّموز في مجتمع معيّن وأخصّها الرّموز اللغوية، والفنية، والدينية»4

---

[1]. اللّغة والدلالة (آراء ونظريات)، عدنان بن ذريل، منشورات اتحاد الكتاب العربي، دمشق، 1981، ص 51.

[2]. معجم اللسانية (فرنسي ـ عربي). د. بسام بركة، ص85.

[3]. معجم مصطلحات النقد العربي القديم، أحمد مطلوب، مكتبة لبنان، لبنان، ط1، 2001م، ص227.

[4]. معجم المصطلحات الفلسفية، عبده الحلو، المركز التربوي للبحوث والإنماء، لبنان، ط1، 1994م، ص157.

ويعرّف (د.فايز الدّاية) هذا العلم بقوله: «هو الفرع الذي يبحث في استخراج قوانين المعنى العامّة، وهو العلم المنوط به رصد معنى الإشارات اللغوية»[1]، وأهم القضايا التي يدرسها هذا العلم:

1ـ قضايا اللفظ والمعنى، أو الدال والمدلول، وفيهما تدرس الرمزية اللغوية، وتحلل في ضوء القيم النفسية والاجتماعية، وثلاثية المرسل والمتلقي والرسالة، كما تدرس معاني الصيغ النحويّة والصّرفية، ومسائل الترادف (تعدد الدالات والمدلول واحد) والمشترك (تعدد المدلولات والدال واحد).

2ـ قضايا التطور الدلالي، وتحليل الدلالة إلى مركزية أساسيّة (معجمية)، أو سياقيّة متحرّكة نامية تحمل ظلاً من المعاني بفضل السياق الذي ترد فيه، ولا شك في أن العوامل التاريخية، والمعطيات الحضاريّة تطبع الدلالات بطابعها.[2]

من خلال تحديد مصطلح السّيميولوجيا، ومصطلح سيميولوجيا الدلالة يتبيّن لنا أن علم العلامات يهتم بدراسة العلامات اللغوية وغير اللغوية، أما سيميولوجيا الدلالة فتهتم بدراسة المعنى الذي تعطيه (الكلمة)، أي إنها تهتم بالعلامات اللغوية فقط، من هنا كانت سيميولوجيا الدلالة أخص من علم العلامات، وعلم العلامات أشمل من سيميولوجيا الدلالة.

---

[1]ـ علم الدلالة العربي، د. فايز الداية، دار الفكر، دمشق، ط2، 1996م، ص 188.

[2]ـ ينظر: مستويات الدراسة الألسنية، محمد عزام، مجلة الموقف الأدبي، العدد 249، عام 1992م، ص 50-51.

وقد حظي هذا العلم باهتمام اللغويين العرب والغربيين ، إذ إن سيميولوجيا الدلالة علم لغوي حديث، وقولنا أنه حديث لا يعني أنه حديث النشأة؛ لأن: «دراسة المعنى في اللّغة بدأت منذ أن حصل للإنسان وعي لغوي، فلقد كان هذا مع علماء اللّغة الهنود، كما كان لليونان أثرهم البين في بلورة مفاهيم لها صلة وثيقة بعلم الدلالة»1، ولكن قولنا يعني أن حداثته تأتي من توصل الدراسات الدلالية إلى ما هي عليه اليوم من تقدم وازدهار، «ففي بداية القرن العشرين تحسّنت منهجية علم الدلالة التاريخي، ويرجع الفضل في ذلك إلى جهود الباحثين الفرنسيين»2.

عندما ظهر كتاب (سوسير) "محاضرات في اللسانيات العامة" أحدث ثورة في الدرس اللساني، وقد واصل (سوسير) ما بدأه العالم اللغوي الفرنسي (بريال) في القرن التاسع عشر من دراسات دلالية، إلا أنه لم يتبع منهجه. ومن المفيد أن نذكر المنهج الذي كان سائداً قبل (سوسير) وفي زمن (بريال) وهو المنهج الدياكروني القائم على الاستثمار التاريخي للدلالة، وبمعنى آخر أنَّ هذا المنهج «يدرس التطور الدلالي للكلمة ليس من

[1]- علم الدلالة أصوله ومناهجه في التراث العربي، منقور عبد الجليل، منشورات اتحاد الكتاب العرب، دمشق، 2001،ص51.

[2]- اتجاهات البحث اللساني، ميلكا إفيتش، ترجمة سعد عبد العزيز مصلوح ـ وفاء كامل فايد، الهيئة العامة للشؤون والمطابع الأميرية، 1996م، ص 361.

خلال إنتاج النّص لمعناها، ولكن من خلال ما يضيفه الزمن إليها، ويدرس حالة اللّغة؛ ليس في مرحلة تاريخيّة ثابتة لذاتها وبذاتها، ولكنّه يدرسها تعاقبيّاً»1.

لقد رأى (سوسير) أن هناك منهجاً آخر أكثر كفاءة وفعالية من المنهج الدياكروني في الدراسات الدلالية، وهو المنهج السانكروني، وهو منهج له معالم مهمة في الدراسات الدلالية اللسانية، وهذا المنهج (يقوم على دراسة حالة لغة من اللغات في زمن معيّن، أي بعيداً عن تتابعها الزمني(...)، وينظر إليها بوصفها كلاً واحداً ومتماسكاً، ويحدد ميدان بحثه في البنى اللغويّة بدءاً من الإشارة اللسانية وانتهاءاً بالتركيب الجملي، وهو منهج وصفي يتجه في تعامله مع اللّغة وجهتين أساسيّتين؛ إنه يحدد الجمل التي تتحقق في لغة من اللّغات باستخدام قواعدها المحدودة العدد، وبعد أن يحدّد الجمل يسعى إلى تحليل بناها»2

إذاً سيمياء الدلالة تبحث في البنى اللغوية بدءاً من الكلمة وانتهاءً بالجملة. والفرق بين المنهج الدّياكروني والمنهج السّانكروني هو أنّ الأول منهما يعتمد الدراسة الوضعيّة التي كانت سائدة في القرن التّاسع عشر، أمّا الثاني فيعتمد الدّراسة الوصفيّة في دراسته للدلالة اللسانية.

[1]. اللسانيات والدّلالة، د. منذر عياشي، مركز الإنماء الحضاري، حلب، ط1، 1996م، ص77.
[2]. المرجع السابق، ص88 ـ 89.

أما علم الدلالة عند العرب فقديم النشأة، لأنَّ «البحوث الدّلالية العربية تمتد من القرون الثالث والرابع والخامس الهجرية إلى سائر القرون التالية لها، وهذا التاريخ المبكر إنّما يعني نضجاً أحرزته العربيّة، وأصّله الدارسون في جوانبها»1.

ومن علماء اللّغة والبلاغة الذين اهتموا بهذا العلم (ابن سينا) في كتابه "الشفاء"، وابن جنّي) في كتابه اللغوي "الخصائص"، و(عبد القاهر الجرجاني) في كتابيه البلاغيين "أسرار البلاغة"، ودلائل الإعجاز.

وقد اهتم علماء العرب من لغويين، وفلاسفة، وفقهاء بدلالات الكلمات، «وما الأعمال العلميّة المبكّرة عندهم من مباحث في علم الأدلّة كضبط المصحف الشريف بالشكل إلاّ خير دليل على ذلك؛ إذ يعد عملاً دلالياً، فتغيير ضبط الكلمة يؤدي حتماً إلى تغيير وظيفتها، وهذا يترتب عليه تغيير في معناها»2.

لقد أسهم علماء العربيّة في وضع أصول علم الدلالة، وجاءت اسهاماتهم متنوّعة ما بين نحو، وصرف، ولغة، وبلاغة، منطلقين في ذلك كلّه من المفاهيم اليونانيّة، و«المساهمة التي قدّمها المناطقة والأصوليّون والبلاغيّون العرب مساهمة مهمّة في علم الدلالة، انطلاقاً من المفاهيم اليونانيّة، وقد كانت محصورة ضمن إطار الدّلالة اللفظيّة، وتوصل العرب إلى تعميم مجال أبحاث الدّلالة على كل أصناف العلامات، ومن الواضح أنّهم

---

[1]- علم الدلالة العربي، د. فاير الداية، ص6.

[2]- الدلالة الإيحائية في الصيغة الإفرادية، د. صفية مطهري، منشورات اتحاد الكتاب العرب، دمشق2003م، ص14.

اعتمدوا الدّلالة اللفظية نموذجاً أساسياً كذلك فأقسام العلامة عند العرب قريبة من تقسيم (بيرس)، وتبقى أبحاثهم التي تتناول تعيين نوعية دلالة الألفاظ المركبة، أو بوجه عام العلامات المركّبة، وتحليل الدلالة المؤلفة من تسلسل عدّة توابع دلاليّة، مدخلاً جديداً ذا منفعة قصوى للسّيمياء المعاصرة»1.

وفي حديثه عن حركة الألفاظ تقديماً وتأخيراً، وأنّ الألفاظ لو انخلعت من دلالتها لما وجب فيها من ترتيب ونظم، نراه يقول: «ولو فرضنا أن تنخلع من هذه الألفاظ ـ التي هي لغات ـ دلالتها لما كان شيء منها أحقّ بالتقديم من شيء، ولا يتصّور أن يجب فيها ترتيب ونظم».2

القصيدة /الدراسة التطبيقية:

قصيدة (عابرون ... في كلام عابر)

قال الشاعر محمود درويش:

أيها المارّون بين الكلماتِ العابرة

احملوا أسماءكم، وانصرفوا

---

[1]ـ السّيمياء أصولها وقواعدها، ميشال أريفيه بانييه ـ جان كلود جيرو ـ جوزيف كوتيس، ترجمة د. رشيد بن مالك، مراجعة وتقديم د. عز الدين المناصرة، منشورات الاختلاف، الجزائر، 1995م، ص25 (هكذا وردت والصواب أصناف العلامات كلها).

[2]ـ دلائل الإعجاز، عبد القاهر الجرجاني، تحقيق محمد التونجي، ح1، دار الكتاب العربي، بيروت، ط1، 1995م،ص56.

واسحبوا ساعاتكم من وقتنا وانصرفوا

وخذو ما شئتم منْ زرقة البحرِ ورملِ

الذاكرة

وخذوا ما شئتم منْ صور، كي تعرفوا

أنّكم لنْ تعرفوا

كيف يبني حجرٌ منْ أرضِنا سَقف السّماء

أيّها المارّون بينَ الكلماتِ العابرةِ

منكم السّيف ... ومنّا دمُنا

منكم الفولاذُ والنّارُ ومنّا لحمُنا

منكم دبابةٌ أخرى ... ومنّا حجر

منكم قنبلةُ الغاز... ومنّا المطر

وعلينا ما عليكم منْ سماء وهواء

فخذوا حصّتكم منْ دمِنا وانصرفوا

وادخلوا حفل عشاءٍ راقص وانصرفوا

وعلينا، نحنُ، أن نحيا، كما نحنُ نشاء

أيّها المارّون بينَ الكلماتِ العابرة

كالغبارِ المرّ مرّوا أينما شئتم ولكن

لا تمرّوا بيننا كالحشرات الطّائرة

فلنا في أرضنا ما نعمل

ولنا قمحٌ نربيه ونسقيه ندى أجسادنا

ولنا ما ليسَ يرضيكم هنا

حجرٌ ... أو خجل

فخذوا الماضيَ، إذا شئتم إلى سوقِ التحف

وأعيدوا الهيكلَ العظميَ للهدهد، إنْ شئتم

على صحنِ خزُف لنا ما ليسَ يرضيكم، لنا المستقبلُ ولنا في أرضنا ما نعمل

أيها المارّون بين الكلمات العابرة

كدّسوا أوهامكم في حفرة مهجورة

وانصرفوا

وأعيدوا عقرب الوقت إلى شرعية العجل المقدّس

أو إلى توقيت موسيقى المسدّس

فلنا ما ليس يرضيكم هنا، فانصرفوا

ولنا ما ليس فيكم: وطنٌ ينزف وشعبٌ ينزف

وطنٌ يصلح للنسيانِ أو للذاكرة

أيّها المارون بين الكلمات العابرة

آن أن تنصرفوا

وتقيموا أينما شئتم ولكن لا تقيموا بيننا

آن أن تنصرفوا

ولتموتوا أينما شئتم ولكن لا تموتوا بيننا

فلنا في أرضنا ما نعمل

ولنا الماضي هنا

ولنا صوت الحياة الأوّل

ولنا الحاضر، والحاضر، والمستقبل

ولنا الدنيا هنا... والآخرة

فاخرجوا من أرضنا

من برّنا ... من بحرنا

من قمحنا... من ملحنا ... من جرحنا

من كلِّ شيءٍ واخرجوا

من مفردات الذاكرة

أيّها المارّون بين الكلمات العابرة

تحليل القصيدة:

إنّ قضية فلسطين من أهم القضايا التي شغلت أمتنا العربيّة، كما شغلت الشعراء أيضاً، ولكنّ (محمود درويش) تميّز عن غيره من الشّعراء بأنّ جلّ أعماله جاءت عن فلسطين، فقد حمل قضية معاناة الشّعب الفلسطينيّ على كتفيه، فكان ناطقاً باسم هذا الشّعب، وكتب هذه القصيدة إبان الانتفاضة الفلسطينيّة التي وحّدت الشّعب الفلسطيني بأكمله.

إذاً، السّياقان الثقافيّ والاجتماعيّ اللذان قيلت فيهما القصيدة يتجلّيان في تجسيد الشّاعر للواقع المؤلم الذي يعيشه الشّعب الفلسطينيّ تحت الاحتلال الصّهيوني المغتصب للأراضي المقدّسة.

بما أنّ السّيميولوجيا هي دراسة العلامات داخل الحياة الاجتماعية، ولأنَّ العنوان ذو دلالات وعلامات رامزة للنصّ أو لجزء منه، فإنّ دراسة العنوان تأتي وفق ما يتميّز به من وظائف؛ إذ إنّ عنوان القصيدة هو أوّل ما يتأمل فيه القارئ عندما ينوي أن يقرأ، أو يدرس نصّا أدبيّاً شعراً كان أم نثراّ؛ فالعنوان «علامة لغويّة تعلو النّص لتسمه وتحدّده، وتغري القارئ بقراءته»[1]وقد حظي العنوان باهتمام السّيميائيين لكونه يحمل دلالةً لغويةً مكثّفة تحوي مضامين النّص، إضافة إلى أنّه أوّل علامة على طريق المتلقي، ومفتاح سيميوي يختزل بنية النّص وكنهه في كلمة أو بضع كلمات.

[1]- السّيميولوجيا، محمد رحيم، دار النور، الرياض، د.ط. د. ت، ص223.

و(محمود درويش) لم ينس هذا الجانب المهم، بل اختار لقصيدته عنواناً مناسباً (عابرون... في كلام عابر) كي يساعده في إلقاء الفكرة، وتقديم المضمون الذي يدور في خلده.

فاستخدامه لاسم الفاعل (عابرون) كان له دلالته العميقة، فقد زاد من قيمة القصيدة من ناحية المعنى؛ إذ أنّ (محمود درويش) يريد أن يلفت نظر الجميع نحو فكرة مهمة، وهي أنّ هؤلاء الصهاينة والأعداء مجرّد غمام أسود، لا بدّ أن يعبر، ويمرّ من فوق سماء القدس الحبيبة.

ومن العنوان أيضاً تظهر لنا فكرتان: فكرة تاريخيّة يعلمها الجميع من كلمة (عبر)، ومنها اشتقَّ (محمود درويش) كلمة (عابرون)، وفكرة خاصة في أذهاننا من كلمة (كلم)، ومنها استنبط كلمة (كلام)، وقد ربط العبور بنقط تفتح الأفق رحباً في التّأويل، فهم عابرون، وسيبقون في كلام عابر.

يفتتح (محمود درويش) قصيدته بعبارة (أيّها المارّون بين الكلمات العابرة)، فقد جعل الأعداء مارّين، وكملة (مارون) تأخذ على مستوى البنية الدّلالية أبعاداً ودلالات أكثر بكثير مما نتصوّر، فلم يقل: أيّها (الغاصبون، أو المعتدون، أو المحتلون....إلخ)، وإنّما تخيّر لفظة (المارّون)، أي العابرون، فهذه الكلمة تستدعي معاني الزوال، والذوبان، والاختفاء، وعدم التأثير.

والظّاهرة التي تشيع في القصيدة بصورة عامّة هي ظاهرة التّكرار؛ إذ إنّنا نلاحظ أنّ الشاعر قد كرّر عبارة (أيّها المارّون بين الكلمات العابرة) في بداية كل مقطع من القصيدة، وذلك ليؤكد لنا أنّ هؤلاء الأعداء مجرد أوهام مصيرها الزوال، وأنّ الجهود المبذولة لإثبات وجودهم في فلسطين لا قيمة لها.

كما نلاحظ أنّ الشاعر قد كرر فعل الأمر_ احملوا، انصرفوا، اسحبوا، اسرقوا....الخ) بأشكال مختلفة تدل على مفهوم واحد، وهو رحيل العدو وجلاؤه عن فلسطين الحبيبة، فالتكرار «يضع في أيدينا مفتاحاً للفكرة المسّلطة على الشاعر، وهو بذلك أحد الأضواء اللاشعورية التي يسلّطها الشّعر على أعماق الشّاعر، فيفضيها بحيث نطلع عليها، أو لنقل إنّه جزء من الهندسة العاطفية للعبارة»1.

و فعل الأمر هو الدلالة على الطلب الجازم على وجه الاستعلاء من الأعلى إلى الأدنى، وفي نص (محمود درويش) جاء الطّلب الجازم من الأعلى(الحق) إلى الأدنى، (الباطل)، أي من أبناء الأرض المقدّسة إلى المحتل الغاصب.

أمّا الصورة الشعرية (احملوا أسماءكم) فقد شكّلت انزياحاً له دلالة، فالحمل عادة يكون لما هو مادّي، ولكنّ الأمر عند (درويش) مختلف، فهو يرفض أيّ وجود لهؤلاء الأعداء، فلا أسماء لهم في أرضنا، ولا تخليد لهم في تاريخنا، فليحملوها ولينصرفوا، وهنا يبدو

[1]. قضايا الشعر المعاصر، نازك الملائكة، دار الفرات، العراق، ط1، 2007، ص 213.

الاستخفاف بهم وبأسمائهم واضحاً، فالشّاعر لا يريد أيّ وجود لهم في الماضي، ولا في الحاضر، ولا في المستقبل.

ثم يطلب من هؤلاء المعتدين الانصراف، فالفعل (انصرفوا) بصيغته ودلالته على الأمر يسلّط الضّوء على نقطة حسّاسة في العبارة، ويكشف عن اهتمام المتكلم بها، وهو بهذا المعنى ذو دلالة نفسيّة تحمل في طيّاتها مشاعر الغضب والكره، وتستدعي دلالات الإعراض عن الشيء، والامتناع والابتعاد عنه، وهذه الدّلالات موجّهة إلى العدو الغاصب، كما أنها تستدعي نقيض الانصراف وهو العودة والرجوع، وهذا حلم كل فلسطيني بالعودة إلى داره وأرضه.

إذاً، إنّ استخدام الشّاعر للأسلوب الإنشائي المتمثل بأفعال الأمر يعكس لنا حالة التوتر لدى الشاعر، ومشاعر الغضب التي تتملّكه.

إنّ صوت الزمن الماضي يتعانق في القصيدة مع صوت الزمنين الحاضر والمستقبل لإعلان الرغبة بالانصراف، يقول محمود درويش: (اسحبوا ساعاتكم من وقتنا)، فالانصراف ليس من الأرض فقط، بل من الزمان والمكان أيضاً؛ فحرية الشّعب الفلسطيني تبدأ بخروج هؤلاء الأعداء، وانصرافهم من الأرض المقدّسة.

لقد ربط (محمود درويش) كلمة (ساعاتكم) بكاف الخطاب، وكلمة (وقتنا) بـ (نا) الدّالة على الجماعة، فالسّاعات لهم، والوقت لنا، وسيبقى ملكاً لنا، والوقت عنصر محسوس لا يلمس، وهو دلالة على الوجود الحقيقي، ولذلك ربطه (محمود درويش) ب (نا) التي تدلّ

على الشّعب الفلسطيني، أي ربطه بالوجود الحقيقيّ، في حين ربط السّاعات التي لا قيمة لها بالعدو.

يتابع (محمود درويش) مخاطبته الأعداء مضيفاً إليهم صفة السّرقة، يقول: (اسرقوا ما شئتم من زرقة البحر ورمل الذاكرة)، فقد اختار درويش لفظة (اسرقوا)، وجعلها مرتبطة ارتباطاً وثيقاً بالمحتل، لأنَّ المحتل يعد سارقاً للأرض والخيرات، ومغتصباً للحريّات.

يأتي المقطع الثاني الذي يتميز على الصعيد الشّكلي بالتركيب المتناظر الذي يتكوّن من حرف الجر مع كاف الخطاب وبعدها اسم، ثم حرف الجر ونا الدالة على الجماعة وبعدها اسم.

تتكرّر هذه المقابلات أربع مرات، ولكن القسم الأول من الجملة بتشكل ليدل على مظهر من مظاهر الحرب، والعنف، والإرهاب ممثلاً بألفاظ (السيف، الفولاذ، دبابة، قنبلة، الغاز)، وقد ارتبطت هذه الألفاظ بالعدو أما القسم الثاني من الجملة فيتشكل ليدل على مظهر من مظاهر الإنسان والطبيعة (دمنا، لحمنا، مطر، حجر) وقد ارتبطت هذه الألفاظ بأبناء فلسطين.

يعقد (محمود درويش) مقارنة بين العدو وأبناء فلسطين يوضّح عبرها عدم التكافؤ في المعركة بينهما؛ فسلاح الأعداء أدوات ماديّة تدمّر، وتنشر الخراب، أمّا سلاح أبناء فلسطين فهو أجسادهم، ودماؤهم، وأرواحهم التي يقدّمونها لتحيا القدس حرّة مستقلة.

توحي هذه المقارنة بإيمان (درويش) بانتصار أبناء فلسطين على العدو؛ فالدّم سينتصر على السّيف، والحجارة ستقف بوجه الدبّابات المدمّرة، والحق سينتصر على الباطل.

كما أنّ هذه المقارنة توضّح لنا أنّ ابن فلسطين كفيل بإعادة بناء أرضه بعد الخراب والدمار الذي خلّفه العدو، وأنّه كفيل أيضاً بحراسة ورد الشّهداء، فعبارة (نحرس ورد الشهداء) جاءت لتدلّ على التضحيات والأرواح التي قُدمت لنيل الحريّة، ولا غرابة في ذلك، ففلسطين بلد الشهداء والأبطال.

يختتم (محمود درويش) المقطع بعبارة (علينا، نحن، أن نحيا كما نشاء)، فهذه العبارة تحمل في طيّاتها دلالات تشير إلى أنّ الإنسان العربيّ يعشق الحريّة، والانتصار، وإثبات الوجود، والعيش الكريم.

وفي المقطع الثالث يفتخر (محمود درويش) بصمود شعبه، ويرى عدوّه لا يساوي شيئاً أمام عينه، إذ إننا نراه يشبّه هذا الدو بالغبار المرّ، فهو لم يكتف بالغبار وإنما وصفة بالغبار المر الذي يعد رمز البؤس والشؤم، فهذا التشبيه يحمل دلالة العيش المرّ الذي يعيشه الشّعب الفلسطيني بوجود المحتل الصهيونيّ في أرضه، وفي الوقت نفسه نشعر أنّ الشاعر عبر هذا التشبيه يعود ليؤكد لنا أنّ هذا العدو كالغبار الذي لا بد له من الزوال.

ثم نجده يوضّح لنا صورة مرور هؤلاء الأعداء كالحشرات الطّائرة، وهنا إذا بحثنا عن العلاقة بين الحدين المشبهين فيها نجدها في صغر حجم الحشرة وقدرتها على الطيران، وما تخلّفه من ضرر خلفها، وكذلك شأن العدوّ في وجوده وضرره.

ويطلب (محمود درويش) من هؤلاء الأعداء أن يأخذوا الماضي كلّه بجملة معترضة (إذا) شئتم تفيد طاقة تعدّد الدلالات باتساع ما تقبله كلمة (الماضي)، وليّأخذوه إلى سوق التحف.

ويقول: عليكم يامن سرقتم وأخذتم الماضي أن تعيدوا الهيكل العظمي للهدهد، وهنا نشير إلى انّ الشّاعر بذكره للهدهد يربط بين مستويي البعد التاريخيّ من جهة والإنساني من جهة ثانية، وذلك من خلال روابط جذريّة بينهما، نجدها في معرفتنا التّاريخية لأفق الهدهد، وأنّه طائر سليمان عليه السّلام، العارف بمنطق الطّير ومجد الهدهد في بعده الإنساني العام ربّما يكون طائر الحكمة، وهادي الطريق.

ينهي الشاعر خطابه مع هؤلاء الأعداء بالتهديد والوعيد لهم، والتحدي بأنّ الأرض لنا، والمستقبل لنا، وهذا ما لا يرضاه الغاصبون.

نلاحظ في القصيد إيقاعاً موسيقياً رائعاً، صدر عن تكرار الشّاعر لبعض العبارات مثل (أيّها المارون) التي تكرّرت ثلاث مرات في القصيدة، وتكراره لأفعال الأمر مثل (اسحبوا، انصرفوا...الخ).

كما أنّ استعمال الشاعر لـ (نا) في (دمنا) جاء ليؤّكد وحدة الشّعب الفلسطيني، وتعاضده وتلاحمه.

ولا بدّ من الإشارة إلى أنّ الشّاعر لم يستخدم الفعل الماضي إلا مرة واحدة عندما قال (وخذوا ما شئتم)، إذ إنّ الفعل الماضي يدل على الجمود والثبات، وهذا ما يرفضه (محمود درويش) رفضاً قاطعاً إذ إنّنا نلمس في هذه القصيدة إرادة التغيير، والحرية والنّصر للشعب الفلسطيني بأكمله.

الخاتمة:

أظهرت هذه الدراسة أن دراسة اللّغة في ضوء السيميائيّة يمكّننا من أن نكشف الدلالات المتنوعة المستخدمة في اللّغة عن طريق البحث في الدلالة اللغوية للكلمات عبر سياقها وليس عن طريق ما تحمله في ذاتها من دلالة، لأنَّ الدلالة هي أداة النص وعن طريقها ينتج النّصّ نفسه سواء أكان هذا النّصّ ينتمي إلى مجال اللّغة الطبيعية أم اللّغة غير الطبيعية.

وقد كشفت الدراسة التطبيقية ما يحمله النّصّ من علامات ودلالات ضمّنها الشاعر ورمّزها في نصّه كما كشفت عن شعرية اللّغة المتحققة في نص الشاعر محمود درويش، والتي ظهرت في طريقة ترتيبه لعناصر النص وصوغه للعبارات،

ويضاف إلى ذلك تمكّنه من توظيف عناصر اللّغة في تحقيق التّواصل والتفاعل بين المرسل والمرسَل إليه، وقد استطاع الشاعر إيصال أفكاره من خلال تحميله اللّغة لعوامل خارجية مرتبطة بالإنسان /المكان، وكشف عن ثنائية الحق الباطل التي تشكل الحلقة الأقوى في نصّه الشعري.

لقد أدت اللّغة التي استخدمها الشاعر وظائفها في العرض والإيصال والتفاعل وإنتاج الدلالات المتنوعة المفتوحة للقراءة والتي خدمت موضوعه الذي يتحدث عنه والقضية التي آمن بها.

ثبت المصادر والمراجع:

ـ القرآن الكريم.

The Holy Quran.

1. اتجاهات البحث اللساني، ميلكا إفيتش، ترجمة سعد عبد العزيز مصلوح ـ وفاء كامل فايد، الهيئة العامة للشؤون والمطابع الأميرية، 1996م.

Trends in Linguistic Research, Milka Ivic, translated by Saad Abdul Aziz Maslouh - Wafa Kamel Fayed, The General Authority for Emiri Affairs and Press, 1996 AD.

2ـ حول مبادئ السّيميائيّة، د. محمد مفتاح، المركز الثقافي العربي، الدّار البيضاء ـ المغرب، 1994م.

On the principles of semiotics, d. Mohamed Moftah, Arab Cultural Center, Casablanca - Morocco, 1994.

3ـ دلائل الإعجاز، عبد القاهر الجرجاني، تحقيق محمد التونجي، ح1، دار الكتاب العربي، بيروت، ط1، 1995م.

Evidence of Miracles, Abdul Qaher Al-Jarjani, investigated by uhammad Al-Tunji, Volume 1, Dar Al-Kitab Al-Arabi, Beirut, 1, 1995AD.

4– الدلالة الإيحائية في الصيغة الإفرادية، د. صفية مطهري، منشورات اتحاد الكتاب العرب، دمشق2003م.

Suggestive significance in the singular form, d. Safia Motahari, Arab Writers Union Publications, Damascus, 2003.

5. السّيمياء أصولها وقواعدها، ميشال أريفيه بانييه ـ جان كلود جيرو ـ جوزيف كوتيس، ترجمة د. رشيد بن مالك، مراجعة وتقديم د. عز الدين المناصرة، منشورات الاختلاف، الجزائر، 1995م.

Semiotics, its origins and rules, Michel Arivé Pannier - Jean-Claude Giroud - Joseph Coutis, translated by Dr. Rashid bin Malik, review and submission d. Izz al-Din al-Manasra, Publications of Difference, Algeria, 1995

6ـ السّيميائيّة والتأويل، روبرت شولز، ترجمة سعيد الغانمي، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ط1، 1994م.

Semiotics and Interpretation, Robert Schulze, translated by Saeed Al-Ghanimi, The Arab Foundation for Studies and Publishing, 1, 1994 AD.

7ـ السّيميولوجيا، محمد رحيم، دار النور، الرياض، د.ط. د. ت.

Semiology, Muhammad Rahim, Dar Al-Nour, Riyadh, d. Dr.. T.

8ـ علم الدلالة أصوله ومناهجه في التراث العربي، منقور عبد الجليل، منشورات اتحاد الكتاب العرب، دمشق، 2001.

Semantics, its origins and methods in the Arab heritage, Manqour Abdel Jalil, Arab Writers Union Publications, Damascus, 2001.

9ـ علم الدلالة العربي، د. فايز الداية، دار الفكر، دمشق، ط2، 1996م.

Arabic Semantics, Dr. Fayez Al-Daya, Dar Al-Fikr, Damascus, 2nd Edition, 1996 AD.

10 ـ القاموس المحيط، مجد الدين محمد بن يعقوب الفيروز أبادي، إعداد وتقديم محمد عبد الرحمن المرعشلي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط2، 2003.

The Ocean Dictionary, Majd Al-Din Muhammad bin Yaqoub Al-Fayrouz Abadi, prepared and presented by Muhammad Abdul Rahman Al-Mara'ashli, Arab Heritage Revival House, Beirut, 2nd edition, 2003.

11. قضايا الشعر المعاصر، نازك الملائكة، دار الفرات، العراق، ط1، 2007.

Issues of Contemporary Poetry, Nazik Al-Malaika, Dar Al-Furat, Iraq, 1, 2007.

12ـ لسان العرب، ابن منظور، مراجعة وتدقيق د. يوسف البقاعي ـ ابراهيم شمس الدين ـ نضال علي، مؤسسة الأعظمي للمطبوعات، بيروت ـ لبنان، ط1، 2005م.

Lisan Al-Arab, Ibn Manzur, revised and revised by Dr. Youssef Al-Beqai - Ibrahim Shams Al-Din - Nidal Ali, Al-Adhamy Foundation for Publications, Beirut - Lebanon, 1, 2005 AD.

13ـ اللسانيات والدّلالة، د. منذر عياشي، مركز الإنماء الحضاري، حلب، ط1، 1996م.

Linguistics and Semantics, Dr. Munther Ayachi, Civilization Development Center, Aleppo, 1, 1996 AD.

14ـ اللّغة والدلالة (آراء ونظريات)، عدنان بن ذريل، منشورات اتحاد الكتاب العربي، دمشق، 1981.

Language and semantics (opinions and theories), Adnan bin Dharil, Publications of the Arab Writers Union, Damascus, 1981.

15ـ معجم اللسانية (فرنسي ـ عربي)، د.بسام بركة، منشورات جروس برس، طرابلس، لبنان، ط1، 1985م.

Dictionary of Linguistics (French - Arabic), Dr. Bassam Baraka, Gross Press Publications, Tripoli, Lebanon, 1, 1985 AD.

16ـ معجم المصطلحات الفلسفية، عبده الحلو، المركز التربوي للبحوث والإنماء، لبنان، ط1، 1994م.

A Dictionary of Philosophical Terms, Abdo Al-Helou, Educational Center for Research and Development, Lebanon, 1st Edition, 1994 AD.

17ـ معجم مصطلحات النقد العربي القديم، أحمد مطلوب، مكتبة لبنان، لبنان، ط1، 2001م.

المجلات والدوريات:

ــ السّـيميائيّة وقـراءة الـنص الأدبــي، السـعيد بوسـقطة، مجلــة المعرفــة، العـدد 540، عام2008.

ـ مسـتويات الدراسـة الألسـنية، محمـد عـزام، مجلـة الموقـف الأدبـي، العـدد 249، عـام 1992م.

A Dictionary of Terms of Ancient Arabic Criticism, Ahmad Matlab, Library of Lebanon, Lebanon, 1, 2001 AD.

Magazines and periodicals:

Semiotics and reading the literary text, Al-Saeed Bousqata, Al-Maarifa magazine, No. 540, 2008.

Levels of Linguistic Study, Muhammad Azzam, Literary Position Magazine, No. 249, 1992 AD.